مجلة التربية والعلم – المجلد (١٩)، العدد (٣)، لسنة ٢٠١٢

الآخر في مراثي النفس الجاهلية في كتاب المفضليات

د. حسن صالح سلطان **خنساء بسام علي**

قسم اللغة العربية / كلية التربية

جامعة الموصل

الاستلام ٠٥ / ٠٧ / ٢٠١١

القبول ٠٥ / ١٠ / ٢٠١١

Abstract

This study aims at shedding light on the poet's view of the other (man). It is divided into an introduction and two sections. The introduction tackles the poet's view of the other and the problem of death and the effect of the environment in shaping the poet's mind in front of this phenomenon.

The first section tackles the poet's mourning himself and others. The second section is devoted to poet's contrast with the other. Thus, the relationship of the I with the other staggers between Contrast and compromise as a result of individual expectations or the environmental conditions. It is obvious that the poet is concerned with the other in all conditions. The silence of I and the reason behind its refusal concerning contrast. Other times it reveals the reasons behind contrast or compromise.

الملخص

إن من نافلة القول الحديث عن أَثر الآخرين في الفرد أو تأثيره فيهم، فالإنسان ذو نزوع اجتماعي ولا يطيق العزلة إلا إذا فرضت عليه فرضاً ولاسيما الإنسان الجاهلي نسبة الثقافة السائدة آنذاك . وقد تناولنا في هذا البحث موقف الشاعر الجاهلي من الآخر في رثائه لنفسه مقتصرين على مراثي النفس الجاهلية في كتاب المفضليات التي تم اختيارها لأَننا وجدنا فيها مادة صالحة للبحث . وقد قامت خطة البحث على تمهيد ومبحثين، تناولنا في التمهيد : أهمية الآخر وموقف الأَنا منه ومشكلة الموت وأثر البيئة الجاهلية في أولئك الشعراء في نظراتهم إليه. أَما المبحث الأَول فتحدثنا فيه عن تضاد الأَنا الشاعرة مع الآخرين . والمبحث الثاني تكلمنا فيه

على الموقف الإيجابي للآخر بالنسبة للراثي، وقد تبين لنا أن تعلق الراثي لنفسه بالآخر أسهمت في توليد عوامل من أبرزها أثر البيئة بجوانبها كافة إلى جانب غياب العقيدة المطمئنة الواعدة بحياة أخرى مما جعل الإنسان آنذاك ينكب على الحياة الدنيا وينشغل بالآخر / الإنسان–المشارك له– انشغالاً يتأرجح بين السلب والإيجاب. وقد انعكس هذا على النص الرثائي عامة وعلى رثاء الذات بشكل خاص . علماً أن النصوص المدروسة قد تحدثت في بعض الأحيان عن الأسباب التي حملت الشاعر على التضاد مع الآخر أو التوافق معه وفي أحيانٍ أخرى أغفلت الحديث عن هذا الجانب إغفالاً تاماً.

التمهيد:

١- الآخر أهميته وموقف الأَنا منه:-

إن الباحث عن دلالة لفظة الآخر معجمياً يجد أنها تعني (غير) فقد ذكر الأزهري أن "معنى آخر : شيء غير الأَول الذي قبله "[١] ومن هنا فإن مفهوم الآخر مفهوم واسع وشامل، إذ إنهُ يمتد ليشمل كل ما هو خارج الذات، فكل ما عداي هو غيري، وهو آخر بالنسبة لي إذا كان يشترك معي بخصائص معينة ويفترق في غيرها في الآن معاً، ومع هذا فإن شعور الإنسان بوجوده لا يتحقق بدون الآخر لأن الآخر عنصر أساس يمنح الذات إحساساً بوجودها إذ إن "وجود الآخر – كما يقول سارتر– شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي وعلى ذلك يصبح اكتشافي لدواخلي اكتشافاً للآخر كحرية تعمل إما لجانبي أو ضدي "[٢]، لذا فإن الذات تكون موجهة نحو الآخرين "فباقي الأشخاص لا يحدون الشخص بل يكونونهُ ويجعلونه ينمو، والشخص لا يكون إلا بشكل موجه نحو الآخرين ولا يعرف نفسهُ إلا بواسطتهم "[٣]. والحقيقة أن الحديث عن الآخر يقتضي حديثاً عن الأَنا أو الذات لأَنهما متلازمان فلا يوجد آخر من دون أَنا مقرون به، فهناك تلازم ما بين الذات والآخر فحضور أي منهما يستدعي تلقائياً حضور الآخر وصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا كما أن "كل صورة للآخر تعكس بمعنى ما صورة للذات "[٤]. فشعور الذات بوجودها الحقيقي لا يمكن أن يتضح إلا من خلال الآخر والاحتكاك معهُ لأنهُ يمنح للذات إحساساً بوجودها كون الآخرين "أساساً عناصر أصلية تقتضيها فكرة الوجود البشري مثلما تقتضي وجود العالم، فالموجود البشري هو أساساً

---

[١] تهذيب اللغة: مادة (آخر).

[٢] الوجودية مذهب إنساني، د. مصطفى غالب: ٧٢.

[٣] الشخصانية، مونيه: ٢٩.

[٤] تعدد الرؤى (نظرات في النص العربي القديم)، د. منتصر عبد القادر الغضنفري: ٤٢.

وجود جماعي "(١). ويشير بوبو إلى أهمية الآخر إذ يذهب إلى أن العلاقة السوية توجب حفظ آخرية الآخر "فأنا اتأكد من خلال الآخر، أعني أنني أصبح حقاً ذاتي من خلال علاقتي بالآخر، وهنا نجد إصراراً جديداً على أنهُ لا يمكن أن يكون هناك أنا بدون أنت "(٢). ولكن الآخر (الإنسان) لا يمثل ضرورة إيجابية في كثير من الأحيان فمما لا شك فيه أن هناك ضرراً ينتج عنهُ لأن الآخر يعد بمثابة قيد للذات يصعب التخلص منهُ، فالعلاقة بين الذات والآخر لا تكون ذات طابع إيجابي دائماً لأن توجه الذات "هو تحقيق الإمكانيات قدر الوسع والطاقة وهذا التحقيق يصطدم بالغير لأنهُ لا يجري داخل الذات وحدها "(٣). ومن هنا نلاحظ أن موقف الذات مع الآخر ليس واحداً بل متذبذب بين الصراع والتكيف، و التفاعل مع الآخر هو بمثابة المُخاطرة التي تكون نتاجاتها مسرة أو مؤلمة (٤). وقد لفت هذا التذبذب نظر كل من هيدجر وسارتر إذ قالا إن تحقيق الوجود للذات يتم عن طريق سلب الآخر ومحاولة جعلهُ مجالاً للإمكانات، فالتفاعل مع الآخرين على وفق منظورهما ما هو إلا نتيجة حاجة الذات للتملك والاستغلال (٥)، لذا فبمحاولة الانسجام مع الجميع تفقد الذات صلتها الحقيقية بنفسها وذلك لخضوعها لأوامر الغير تبعاً للكيفية والكمية (٦). ومن هذا نجد "أن فكرة بوبر تتمتع بعمق وشمولية إلى حدّ ما، فهو يبدو لنا أكثر اعتدالاً من الذين حاولوا قطع العلاقة مع الآخر ودعوا إلى التفاف الذات حول نفسها "(٧). ومما تقدم يتضح لنا مدى أهمية الآخر (الإنسان) للذات فبدون الآخر لا قيمة لها.

٢- الإنسان ومشكلة الموت:

إن أكبر مشكلة واجهت الإنسان هي مشكلة الموت وذلك "بعد أن حلّ تصور الزمن الذي يسير في خط مستقيم محل تصور الزمن الدائري فقد أدى ارتباط الزمن الذي يسير في خط مستقيم بالاتجاه إلى الفردية الذي أشرق على أعضاء الجماعة البدائية إلى جعل الموت يبدو تهديداً حقيقاً "(٨). إذ وجد الإنسان أن الموت فعل فيه قضاء على كل فعل وهذا جعل الإنسان

---

(١) الوجودية، جون ماكوري: ١٤٨.

(٢) م. ن: ١٦٦.

(٣) الزمان الوجودي، د. عبد الرحمن بدوي: ٣٦.

(٤) ينظر: الشخصانية: ٢٧.

(٥) ينظر: م، ن: ٢٦.

(٦) ينظر: الزمان الوجودي: ٤٣.

(٧) المرأة في معلقة امرئ القيس بين العلاقة والمسافة، د. حسن صالح سلطان، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٤، العدد ٢، السنة ٢٠٠٧: ١٠٦.

(٨) الموت في الفكر الغربي، جاك شوؤن: ٢٩.

يحس أنهُ "معدٌ للموت غائصٌ في لجة ا ليأس يبحث عن معنى الحياة التي تصب في فجوة الموت المرعبة والمعتمة "(١). ويظهر هذا الإحساس جلياً في قصائد الرثاء التي تصور أسى الإنسان والخوف الذي يستشعرهُ من الموت الذي يتيقظ عند موت الآخر (٢). لأَن "موت أحد الناس موضوع خارجي مستقل عن الأنا ولكنهُ مع ذلك يقب ل الانسحاب إلى الداخل نظراً لاستطاعة الذات تصور موتها عبر الآخر "(٣). لذا نجد الإنسان الجاهلي يحس بمظهر آخر من مظاهر القهر الكامن في الزمان الذي يأَبى عودة الفقيد إلى ساحة الوجود ثانية (٤). إن محاولات الإنسان الفاشلة تجاه الموت وقهره جعلت الإنسان يتصور الموت كائناً غامضاً مرعباً لا يبقي على أَحد ولا تقف بوجهِ كل الفعاليات الإنسانية ولكن هذا التصور لم يكن مهيمناً على رؤية الإنسان دائماً وإنما يتفجر عند حالات الموت الغيرية إذ إن الوعي يتولد نتيجة الصدمة (٥). وقد جاء نص الرثاء استجابة لهذا الوعي الحاد فكانت المراثي تدفقاً شعورياً مفعماً بالمرارة والأسى وقد نوه الجاحظ لهذا عندما أورد حواراً مع أعرابي فحواه "قيل لأَعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأَننا نقول وأكبادنا تحترق "(٦). فالوعي الحاد بالموت المتفجر عند حوادث الموت الغيرية يجعل الذات الشاعرة تحسُ بلا جدوى العيش وترى أن كل الفعاليات والممتلكات لا تقف بوجه الفناء وهذا لا يعني أن نص الرثاء هو نص رثائي للغير إذ نجد نصوصاً رثائية كان محورها رثاء الذات إذ أحس مبدعوها بدنو أَجلهم فعبروا عن هذا الإحساس بنصوص جسدت موقفهم من الآخر.

٣- البيئة وأثرها في التشكيل الرثائي:

تعد البيئة الطبيعية من المؤَثرات الأساسية في حياة أي مجتمع من المجتمعات وتكوينه لأَن السمات الأخلاقية ما هي إلا حاصل أحوال البيئة . ولقد تطرق فكتور كوزان لهذا بقوله "أعطوني خريطة بلد، مناخه ورياحه وكل جغرافيته ونباته وحيوانه، فأتعهد بأَن أنبئكم سل فاً بما سيكونهُ إنسان هذا البلد، وبالدور الذي سيلعبهُ البلد في التأريخ "(٧). وبسبب صعوبة العيش في

---

(١) جدلية الحياة والموت، نصوص ومقاربات، حيدر الجراح، مجلة النبأ، العدد ٣٥، السنة الخامسة، ربيع الثاني، ١٤٢٠: ٢٥.

(٢) ينظر: دراسات في الأدب الجاهلي، د. عادل البياتي: ١/ ٣٤.

(٣) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف: ٣٣١.

(٤) ينظر: ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، أحمد خليل: ٥٤.

(٥) ينظر: كامو والتمرد، روبير دولو بيه، ١٠.

(٦) البيان والتبيين: ٢/٣٧١.

(٧) الفن والتصور المادي للتأريخ، جورج بليخا نوف، ٢٥، نقلاً عن كتاب القلق والاغتراب في شعر ما قبل الإسلام، د. عمر الطالب: ٦٧.

الطبيعة القاحلة نتجت الصراعات بين القبائل فسلبت القبيلة القوية الخيرات الطبيعية للقبيلة الضعيفة وبهذا كان المجتمع الجاهلي مجتمعاً يقوم على شفار السيف والتصاول لذا فليس بإمكان أحد أن يعيش منعزلاً عن قبيلته بل على العكس عمل الفرد جاهداً أن يبقى متوحداً معها (١). ويمكننا القول إن القبيلة عندهُ مقدمة على أسرتهِ "ففي وسط مادي معين تكون بعض المنظومات الاجتماعية أكثر أهمية من غيرها فالقبيلة مثلاً في الصحراء خير من الأسرة أو بالأحرى لا يمكن للأسرة أن تعيش بمفردها في مثل هذهِ البيئة الصعبة"(٢). وهذا ما أدى إلى أن يكون الفرد معتمداً على القبيلة فالخير الذي يصيب القبيلة يصيبهُ والشر الذي يلحقها يلحقهُ ونتج عن هذا الأمر ذوبان الفرد في الجماعة لهذا عمدت القبيلة إلى استخدام النفي بحق كل مسيء لها، ومما لا شك أن هذا الحكم مصيبة كبيرة على المنفي فكيف يعيش منسلخاً عن قبيلته وما مدى العار الذي سيلحقهُ ويلحق أبناءهُ فحتى إن طلب اللجوء إلى قبيلة أخرى وقبلت لجوءهُ فسيبقى يشعر بالقهر والحرمان من قبيلته . وقد انعكست الظروف البيئية على نتاج الشعراء أنفسهم إذ نلاحظ أن الشاعر حتى في رثاء نفسه ينشغل بالآخر على العكس من رأي ابن رشيق القيرواني القائل إن الآخذ بالرثاء يكون مشغولاً عما سوى الموت(٣) وهذا ما دفع إلى البحث في موقف الذوات الراثية لنفسها من الآخر إذ بدا الموقف متذبذباً بين السلب والإيجاب.

أولاً: الآخر المضاد

يبدو الآخر المضاد في النص الشعري سواء أكان مسبباً في هلاك الذات أو لا شأن له، وهذهِ الظاهرة قد أفرزها تعلق الإنسان بالحياة أولاً وبالآخر ثانياً، ومن هنا فإن تضاد الراثي مع الآخرين لهُ ما يبررهُ إذا كان الآخر مسبباً لهلاك الأَنا الشاعرة كما هو الحال مع الشاعر عبد يغوث إذ تشير المعطيات التأريخية إلى أنه وقع في أسر بني تميم يوم الكلاب بعد أن وقف يدافع عن أَواخر قبيلتهِ الفارة وقد سبق لهُ أن نصحهم بالاكتفاء بالغنائم دون محاولة سبي النساء ولكنهم أَبوا فكانت الواقعة الحربية لصالح القبيلة المغزوة (تميم) ووقع الشاعر في الأسر وانتهت حياته بالقتل، فقال قصيدتهُ هاجياً قومهُ على حد زعمه (٤) إذ استهل النص بأداة استفتاح (أَلا) لتعقبها جملة إنشائية ذات مضمون ناهٍ موجه إلى الآخر(٥):

---

(١) ينظر : شعر الاغتراب في الأدب العربي، د . ماهر حسن فهمي، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، ١٩٦٩: ١٣٤/٢٥.

(٢) الظاهرة الأدبية في عصر صدر الإسلام والدولة الأُموية، د. إحسان سركيس: ٤٤.

(٣) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١٥٢/٢.

(٤) ينظر: العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: ٢٢٧/٥-٢٢٩.

(٥) شرح المفضليات، أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي: ق٢/٦٠٧.

أَلا لا تلُومانِي كفى اللَّومَ ما بِيا وما لكُما في اللَّومِ خيرٌ و لاليَا
أَلم تعلما أَنَّ الملامَةَ نَفعُها قليلٌ، وما لومي أَخي مِن شِمَالِيَا

إذ يتجلى التضاد بين الأنا الشاعرة والآخر الواقعي أو المفترض، فالآخر لا يعي ولا يحس بمدى معاناة ذات الشاعر التي تكابد مأساةً وقهراً شديدين (كفى اللوم ما بيا) مع يقينية تامة أن اللوم لا يجدي نفعاً ولا يرد فائتاً يعضد هذا الجملة المنفية في الشطر الثاني (ما لكما) التي قدم فيها الخبر (لكما) على المبتدأ (خير) ولا شك أن لهذا التقديم دلالته العميقة إذ نفى كل فائدة ترجى من لوم الآخر لا للائم ولا للملوم وهذا أسلوب منطقي متوافق مع معطيات الثقافة العربية ليتبع هذا الأسلوب بأسلوب إيهامي يحمل معنى الإنكار (ألم تعلما) إن الهوة القائمة بين الشاعر وبين اللائم الواقعي أو المفترض كما أسلفنا كبيرة، إذ إن هناك تبايناً بين وجهتي نظريهما إلى جانب أن الآخر الدّالة عليه ألف الاثنين (تلوماني، تعلما) لا يحس بما تعانيه ذات الشاعر، وفي موضع آخر نلحظ تضاد المشاعر مع قومه، يكشف عن هذا التضاد أسلوب الدعاء بقولهِ(١):

جَزَى اللهُ قومِي بالكُلابِ ملامةً صَريحَهُمُ والأخَرينَ المَواليا
ولو شئتُ نجَّتني من الخيلِ نهدة ترى خلفها الحُوَّ الجِ يَادَ تَوَالِيا
ولكنَّني أَحمي ذِمارَ أَبيكُمُ وكان الرماحُ يختطفن المُحاميا

فالجزاء المدعو به ليس جزاء خيرٍ، إنهُ جزاء ملامة ولكنه ليس جزاءً شمولياً يغطي الزمان والمكان وإنما يقتصر على موضع الكلاب إذ بدت القبيلة (قومي) بالنسبة للشاعر شيئاً آخر عند ما لجأت إلى الفرار الذي يعد عيباً على وفق منظور العادات العربية في حين أن الشاعر بقي يدافع عن حاضر القبيلة وماضيها (ولكنني أحمي ذمار أبيكم) فهو يخاف على حاضر القبيلة وماضيها الزاهر، ودفاعُه لم يكن دفاعاً اضطرارياً وإنما كان اختياراً متاحاً من بين جملة اختيارات كون الشاعر يمتلك فرساً تمكنهُ من النجاة (ولو شئتُ نجتني)، إن الشاعر يرى أن على الآخرين (قومهُ) أن يحذوا حذوه ويدافعوا عن قيم القبيلة وممتلكاتها. وإذا كان التضاد مع الآخر / القبيلة هو المسيطر على رؤية عبد يغوث في الأبيات المتقدمة فهذا لا يعني أنهُ في توافق مع آسريه الذين صادروا حقهُ في الكلام(٢):

أقولُ وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ : أَمعشَر تيمٍ أَطلقوا عن لسانيَا

---

(١) شرح المفضليات: ق٢/٦٠٨-٦٠٩.

(٢) م.ن: ق٢/٦٠٩-٦١٠.

أَمعشَر تيمٍ قد ملكتُم فأَسجِحُوا   فإنَّ أَخاكم لم يكُن مِن بَوَائِيَا
فإنْ تقْتُلوني تقتُلُوا بي سيِّداً   وإنْ تُطلِقُونِي تَحرُ ُبُونِي بِمالِيَا

إن شد اللسان من قبل الآسرين لم يكن على وجه الحقيقة وإنما هو مجاز قولي (١). وعلى أية حال فإن الشاعر عبد يغوث يُعرب عن إحساسه بالقهر والضيم لأن الآخرين صادروا حقهُ في الكلام الذي يمثل أبسط الحقوق بالنسبة للبشر هذا فضلاً عن أن آسريه يريدون قتله بجريمةٍ لم يرتكبها(٢). ولكن تعبير الشاعر عن هذا الظلم تعبير ضعيف مضطهد مستسلم كونه أسيراً لا يملك شيئاً على المستوى المعنوي والمادي وهذا ما جعل ألفاظ الاستعطاف والتذلل حاضرة في البيتين المتقدمين (ملكتم، أسجحوا) كل هذا جاء عن طريق حوار الشاعر مع آسريه . ولكننا نلمح أن النص لم يفصح عن رؤية الآخر (آسريه) وهذا يعني تعاليهم على الشاعر واستصغار شأنه – على الرغم من أَنهُ يعد نفسهُ سيداً ومالكاً لمالٍ كثيرٍ (تحربوني بماليا)– وهذا إن دل على شيء إنما يدل على خوف الشاعر من المصير الذي ينتظرهُ إذ حاول بشتى السبل الخلاص، ولكنهُ لم يجد من يصغي إليه وهذا ما جعلهُ يتيقن من موته ومما يزيده أَلماً استهزاء العجوز التيمية منهُ بعد أن علمت أن الذي أسرهُ غلام نحيف فقالت لهُ من أَنت؟ فأَجابها بأَنهُ سيد قومه، فضحكت حال سماعها لهذِهِ الإجابة قائلة لهُ : "قبحكَ الله من سيد قومٍ حين أسرك مثل هذا "(٣). فكان رده أن القبائل اليمانية ليست في منعةٍ من القدر ومجرياته(٤):

وتضحكُ مني شيخةٌ عبشميةٌ   كأَنْ لم ترَ قبلي أسيراً يمانيا

وهذا البيت يحمل بعداً تأريخياً إذ إن اليمانية القحطانية كانت تتعالى على بقية القبائل العربية إلى أن وقع يوم خزاز هذا اليوم الذي انتصرت فيه المعدّية على اليمانية (٥) وبدأَت القبائل العربية الأخرى تتجرأ على اليمانية لذا فالشاعر يُعرب عن تعجّبهِ من استهزاء العجوز منهُ لأَن هالة التعظيم التي كانت تحيط باليمانية قد تلاشت هذا على المستوى القبلي أما على المستوى الشخصي بالنسبة للشاعر فكل شيء أصبح متلاشياً بعد أن وقع أسيراً وتيقن من حتمية موتهِ، عَبَّر عن هذا بأسلوب يوحي بالتعجب خاتماً نصهُ بهذا الأسلوب(٦):

---

(١) شرح المفضليات: ق٢/٦٠٩.
(٢) م. ن: ق٢/٦١٠.
(٣) العقد الفريد: ٥/٢٢٨.
(٤) شرح المفضليات: ق٢/٦١١.
(٥) ينظر: العقد الفريد: ٥/٢٤٨.
(٦) شرح المفضليات: ق٢/٦١٢.

كأنّي لم أَركبْ جواداً ولم أَقُلْ   لخيلي كُرِّي نَفِّسي عن رِجَالِيَا
ولم أسبإِ الزقَّ الرّويَّ ولم أَقُلْ   لأَيسارِ صدْقٍ أَعظموا ضوءَ ناريا

إن كل ما أنجزه الشاعر لم يكن ليحميه من استهزاء الغير (العجوز) لأن ما فعلهُ في الماضي تلاشى وانتهى به الحال أن يقع أسيراً ويكون سخرية للآخر . وإذا كان مقتل عبد يغوث وقع بسبب الآخر لذا رأى في الآخر شخصية مضادة فإننا نرى أفنون التغلبي(١)، يقف موقفاً مضاداً من الآخر من خلال رثائهِ لنفسهِ علماً أن الآخر لم يكن سبباً في هلاكهِ إذ تشير المصادر التأريخية إلى أن كاهناً أنبأَهُ بأَنهُ سيموت بأَرض إلآهة كما أشار ابن قتيبة بقولهُ : "كان من خبرهِ – أي افنون – أنهُ لقي كاهناً فسأَله عن موته فقال لهُ تموت بمكان يقالُ لهُ إلآهة فمكث ما شاء الله ثم سار في تجارة إلى الشام، ثم رجع في ركبٍ من بني تغلب فضلوا الطريق فلقوا إنساناً فاستخبروه، فنعت لهم، فقال في نعته "إذا رأَيتم إلآهة حَيَّ لكم الطريق ... فلما أَتوها نزل أصحابه وقالوا انزل فقال افنون والله لا أنزل . فجعلت ناقته ترعى عرجفاً فلدغتها أفعى من مشفرها فاحتكت بساقه والحية متعلقة بمشفرها فلدغتهُ في ساقهِ فقال لرفيقهِ احفر لي قبراً "(٢) وأنشأ قائلاً(٣):

أَلا لستُ في شيءً فروحاً معاويا   ولا المشفقاتُ إذ تبِعنَ الحوازِيَا
فلا خيرَ فيما يكْذبُ المرءُ نفسَهُ   وتقَوالِهِ للشيءِ : يا ليتَ ذَا لِيَا
فطأً معرِضاً، إنَّ الحُتُوفَ كثيرةٌ   وإنَّكَ لا تُبقي بِمَالِكَ باقِيَا
لَعمرُكَ ما يدري امْرُؤٌ كيف يَتَّقي   إذا هُوَ لَمْ يَجعلْ لهُ اللهُ واقِيَا

إذ نلمح أَن المقطوعة تتوافق مع قصائد الرثاء كونها ذات مطلع انفعالي حاد (٤) كشف عن قلق الشاعر وخوفه. وعلى الرغم من أنه لم يُصرّح بتضادهِ مع الآخر إلا أن القارئ يستشف هذا من خلال رؤية الشاعر التي تتضاد مع رؤية أهل ذلك العصر فهو لا تهمهُ النساء بشيء علماً أن الإنسان الجاهلي يرى في المرأَة الحياة، فإن أقبلت المرأَة عليه أقبلت الحياة عليه (٥)، كما كما أنهُ لا يؤمن بمعتقدات أهل ذلك العصر إذ يسفّه إيمانهم بالكهنة (الحوازي) وهذا إن دل على شيء فإنما يدلُ على أَن أسطورة موت الشاعر موضوعة، كما أنهُ يدل على أَن الشاعر في

---

(١) هو صريم بن معشر بن ذهل التغلبي، ينظر: خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي،ج١١ : ١٥١.

(٢) الشعر والشعراء: ٤١٩/١. وفي الخزانة قال: "لأخ لهُ أَحفر لي قبراً فإني ميت": ج١٥٢/١.

(٣) شرح المفضليات: ق٩٣٣/٢-٩٤٢.

(٤) ينظر :رثاء الأخوة في الشعر الجاهلي، عبدالعزيز شحادة، مجلة البصائر، المجلد ٢، العدد ٢، ١٩٩٨: ٦١.

(٥) ينظر: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعرهِ (دراسة نقدية)، صلاح عبدالحافظ: ٣٩٢.

تضاد مع أهل ذلك العصر لأَنهُ خرق معتقداتهم بتسفيههِ لرأي من يتبع الكاهن أو يصغي إليه، إلى جانب ما تقدم فإنهُ يرى في تمني الإنسان وآمالهِ ضلالة لأن الإنسان لا يملك من أمرهِ شيئاً (فلا خير فيما يكذب المرء نفسه) ولا يكتفي الشاعر في تضادهِ مع الآخرين على المستوى المعنوي والعقائدي بل يتعدا ه إلى الجانب الاقتصادي عندما يُصَّرح أن المال لا يمكن أن يكون دريئةً تقي من الموت وفي هذا دعوة ضمنية إلى عدم الاهتمام بالمال علماً أن الممتلكات العينية في العصور القديمة تمثل جزءاً من الذات فإذا فنيت فإن مالكها معرض للهلاك وإذا بقيت فإن المالك بمنجى من الخطر(١).

وإذا كانت هناك معطيات تأريخية تشير إلى سبب رثاء افنون وعبد يغوث لنفسيهما وسبب موقفهما من الآخر فإننا نجد الممزق العبدي (شأس بن نهار بن أسود)(٢) يرثي نفسه ويكشف عن موقفه من الآخر من دون أن نعرف الأمر الذي حمله على هذا، ومع هذا فإن عدم توفر معلوماتنا عن البواعث لقول هذهِ المقطوعة لا يلغي الكشف عن الموقف المضاد للآخر من قِبَل الشاعر الذي استهل نصهُ بأسلوب استفهامي يوحي بخوفه من الموت ونشدانهِ الخلود(٣):

هلْ للفتى من بناتِ الدَّهر مِن واقِ   أَمْ هل لهُ من حَمِامِ الموتِ من راقِ

إن تساؤل الشاعر يحمل طابعاً شمولياً وذلك عن طريق تغيب المسؤول وهو في الوقت نفسه ينمُ عن حيرة الشاعر وخوفه من الموت، يوحي بهذا أساليب التوكيد المتمثلة بحرف الجر الزائد (من) الثانية وتقديم الخبر على المبتدأ ويمتزج مع هذا الخوف رفض الشاعر لبعض المعتقدات السائدة في عصره إ ذ إنهُ في الشطر الثاني بين أن الرُقى والتعاويذ – التي يؤَمن بها كثير من أبناء عصره – لا تنفع طالما أنها لا تكسب الإنسان الخلود . بعدها يسترسل الشاعر في تصوير طقوس جنازته بدءاً من الغسل حتى الدفن كاشفاً عن اهتمام الآخرين به، ولكن ثمة إشارات توحي بأَنهُ غيِ راضٍ عن الآخر يظهر هذا من خلال قولهُ(٤):

ورَفَّعُوني وقالوا : أَيُّمَا رَجُلٍ   وأَدْرَجُوني كأَنِّي طيُّ مِخْراقِ

إذ يشبه نفسه عندما أدرجه الآخرون في الكفن بطي المخراق التي تعني العمامة التي يلهو بها الصبيان وبهذا فإن الشاعر من خلال استشرافه لعملية الدفن تصور نفسه بأنها أُلعوبة

---

(١) ينظر: الإنسان بين المظهر والجوهر، أريك فروم: ٨٥.

(٢) يذكر ابن قتيبة أن لقب الممزق جاء لقولهِ:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ أكلٍ   وإلاّ فادركني ولمّا أُمزَّقِ

الشعر والشعراء: ٣٩٩/١.

(٣) شرح المفضليات: ق١٠٥٥/٢.

(٤) م. ن: ق١٠٥٦/٢.

بأَيدي الآخرين على الرغم من تأَسفهم عليه (أيما رجل) فهناك تباين بين أقوالهم وأفعالهم، ويبلغ تضاد الشاعر مع الآخرين ذروتهُ في البيت الخامس الذي يفصح فيه عن سلب الآخر لملكيته بمجرد موته(١):

هَوِّنْ عَليكَ ولا تولعْ بإشفَاقِ   فإنَّما مالُنا للوارِثِ الباقي

إن حديث الشاعر عما سيفعل "ورثتهُ بطريقة لاتخلو من سخرية خفية من ولع الإنسان بالحياة وإقبالهِ عليها ثم إذا به في النهاية يخلفها للآخرين دون أن يحصل منها على شيء مما جمع وأبقى "(٢). وفي الوقت نفسه يدعو ضمنياً إلى انتهاب اللذات وإتلاف المال لكي لا يبقي للآخر شيئاً منهُ لأَن التقتير والاقتصاد وحرمان الذات من التلذذ بما تملك لا يجدي نفعاً لأَنهُ سيؤول للآخر الوارث وكأَن الوارث لن تنالهُ يد الفناء يوحي بهذا وصف الوارث بالبقاء (الوارث الباقي). لقد سلب الممزق نفسهُ حتى المُلكية ف المال ليس لهُ وإنما للوارث كما يدل على هذا أسلوب القصر بالأداة (إنما) التي دلت على قصر المبتدأ (المال) على الخبر (الوارث).

ثانياً: الآخر الموافق:

لما كان الآخر حاجة أساسية بالنسبة للذات في الحياة "فحقيقة الوجود هي الوجود مع الآخرين"(٣). فإن اهتمام الذات بالآخر في النصوص التي ندرسها يظهر جلياً حتى في لحظات الموت إذ كشفت تلك النصوص عن توافق الذات الراثية لنفسها مع بعض الآخرين فهذا عبد يغوث يُلمِّح إلى حنينهِ للآخر ويكشف عن تشوقه إليه بقولهِ(٤):

فَيَا راكباً إمَّا عَرَضِتَ فَبَلِّغن   نَدامايَ من نجرانَ أَنْ لا تَلاقِيَا
أَبا كربٍ والأَيهَمَينِ كِلَيهِمَا   وقَيْساً بأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ اليَمانِيَا

فالشاعر في أسرهِ يتوسل بمن يخبر أصحابه المحبين بأن اللقاء بينهم باتَ مستحيلاً ظناً منهُ أَنهم سيتأَسفون ويشاركونهُ في معاناتهِ لذا فهو يتوسل بأَي راكب أن يبلغ أصحابهُ بالفراق الأبدي، يؤكد هذا نداؤهُ للنكرة غير المقصودة (راكباً)، فضلاً عن هذا فإنهم ندامى الشاعر وحدهُ يظهر ذلك من خلال التكرار تؤكد هذا علاقة التضايف بين هذهِ الكلمة ندامى وياء المتكلم إلى جانب ما توحي به هذهِ المفردة من علاقة وطيدة تربط الشاعر بأَصحابه البعيدين وهم ليسوا كل أصحابه إذ إن هناك أصحاباً آخرين لم يُشر إليهم يوحي بهذا حرف الجر (من) الذي يفيد

---

(١) شرح المفضليات: ق٢/١٠٥٦.

(٢) التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، عبدالقادر عبدالحميد زيدان: ١٦٤.

(٣) مسائل في الإبداع والتصور، عبدالملك بن خلدون: ١١٥.

(٤) شرح المفضليات: ق٢/ ٦٠٨.

التبعيض بعدها يبدأ الشاعر بذكر أولئك الندامى (أبا كرب، الأيهمين، قيساً) ويمتزج هذا الحنين إلى الإنسان مع الحنين إلى المكان (اليمن) لأَن التصافي السابق بينهُ وبين الآخرين قد تحقق في ذلك المكان ولا يمكن أن يتكرر إلا في ذلك المكان سواء أكان في حضرموت أو نجران لأَن كلا المكانين يحتويهما مكانٌ أوسع هو اليمن ولا يقتصر توافق الشاعر على هذا الجانب حسب وإِنما نراه يُعرب عن حنينهِ وتوافقه مع طبقةِ أقل منهُ منزلة هم الرعاة بقولهِ[1]:

أَحَقًّاً عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ سامِعاً   نَشِيدَ الرعاءِ المُعزبينَ المَتَالِيَا

إن صيغة السؤال الواردة في النص المتقدم تكشف عن إحساس الشاعر بالظلم والغبن المتحقق جراء حرمانه من سماع أغاني الرعاة وأي رعاة هم إنهم الرعا ة المعزبون الذين بدا انتماؤهم إلى الطبيعة أكثر من انتمائهم إلى المجتمع وهذا لا يعني أن الشاعر يريد أن يفر من الجماعة أو أنهُ على تضاد معها، وإِنما يرى في الابتعاد مع هؤلاء الرعاة الذين هم أقل منهُ مكانة على المستويين الفكري والاجتماعي ابتعاداً عن تبعيات الـمسؤولية التي أوصلته إلى وضعه هذا . وإِذا كان الشاعر يظهر توافقهُ مع فئة من أبناء قومهِ فإننا نلمح توافقهُ مع فئة من آسريه تمثلت بالنساء إذ يقول[2]:

وظَلَّ نِساءُ الحيِّ حولي رُكَّداً   يراودنَ منّي ما تُريدُ نسائيا

فجنس النساء التميميات قريبات إلى نفسه إذ وجدن فيه ما يغريهن ويجذبهن جذباً يصل إلى مستوى الجنون توحي بهذا لفظة (رُكَّد) إذ تعني هذهِ اللفظة السكون وعدم الحراك كل هذا لأَجل أن ينلن منهُ ما نالتهُ حلائلهُ . وإِذا كان الشاعر على توافق مع بعض الآخرين في حاضرهِ فإننا نجدهُ أشد التصاقاً وتوافقاً مع ا لآخرين في ماضيهِ يتجلى هذا من خلال تباهي الشاعر بماضيهِ إِذ يقول[3]:

وقد كُنتُ نحَّار الجّزُور ومُعمِلَ الـ   مَطيِّ وأَمضي حيثُ لا حَيَّ ماضِيَا

وأَنحرُ لِلشَّربِ الكرام مَطيَّتي   وأَصدعُ بين القينتينِ ردِائِيا

****************   ****************

ك أَنِّي لم أركبْ جَوَاداً ولم أَقُلْ   لخيليَ كُري نفِّسي عن رِجَالِيَا

ولم أسبأ الزِقَّ الرويَّ ولم أَقُلْ   لأَيْسارِ صدْقٍ : أَعظِموا ضَوءَ نَارِيَا

---

[1] شرح المفضليات: ق٢/٦١٠.

[2] ص، ن.

[3] م، ن: ق٢/٦١١-٦١٢.

إن ما قام الشاعر به في الماضي لم يكن لأَجل مصلحة ذاتية صرفة فهو ينحر الناقة البدينة (الجزور) كي يطعم الآخرين، ويمارس لذته (الشرب) مع مجموعة وصفهم بالكرام فهو مشارك للآخرين في جدهم وفي لهوهم وإن كنا نلمح عندهُ حس الاستعلاء ولكن الشاعر يدرك أن ما فات لن يعود لذا نراه يختم قصيدتهِ بالإشارة إلى أن كل ما قدمهُ وفعلهُ لم يبقَ منهُ شيءٌ تجسد هذا عبر أسلوب التشبيه (كأني لم أركب) وأخيراً فإن الشاعر في كل ما فعلهُ –كما يزعم– لم يخرج عن الأعراف المتفق عليها آنذاك وهذا يدلّ على أنهُ كان مهتماً بالآخرين متوافقاً معهم.

أما افنون التغلبي فإننا نلمس توافقهُ مع بعض الآخرين (معاوية) منذ الشطر الأول الذي استهل به مرثاته وذلك بقوله(١):

ألا لستُ في شيءٍ فروحاً معاويا   ولا المشفقاتُ إذ تبعنَ الحوازِيَا

إنه من المهم عنده أن يسمع موقفهُ هذا للآخر (معاوية) ولذا نرى الشاعر يخاطبهُ دون غيرهِ مما يدل على اهتمام الشاعر بالشخص المذكور. وإذا كان الشاعر في المطلع يلمح إلى توافقهِ مع معاوية فإنهُ في البيت الأخير يعُرب عن مدى تعلقهُ بالآخرين وتوافقه إذ يقول(٢):

كَفَى حَزَناً أَنْ يرحَلَ الحيُّ غُدْوَةً   وأُصبحَ في أَعْلَى إلآهَةَ ثاوِيَا

إن ذروة مأساته وقمة حزنه تكون عندما يرحل الآخرون (الحيّ) ويبقى رهين منطقة الآهة فهو متعلق بهم ويدرك في الوقت نفسه أن الحياة مستمرة في حركتها لذا فإن أصحابه لن يقيموا عند قبرهِ لأَنهم بعد دفنهِ سيستمرون في مزاولة حياتهم ونشاطاتهم.

كما نلاحظ توافق الممزق مع الآخرين من خلال حديثهِ عن الطقوس التي تصاحب دفنهِ إذ نراه يصور اهتمام الآخرين به وإعلاءهم لشأنهِ نجد هذا بقوله(٣):

قد رَجَّلوني وما رُجِّلْتُ من شَعَث   وأَلبَسُونِي ثياباً غَيْرَ أَخلاقِ

*************** ****************

وأَرسلوا فتيةً من خَيرِهم حَسَباً   لِيُسْنِدُوا في ضريحِ التُّرابِ أَطباقِي

إن هذهِ العناية والاهتمام من قبل الآخرين بجنازتهِ تدل على أنهُ كان في توافقٍ معهم وأنهُ كان مشاركاً فعالاً لهم في السراء والضراء ولذا جاء هذا الاهتمام غير العادي بجنازتهِ.

---

(١) شرح المفضليات: ق٢/٩٣٩.

(٢) م. ن: ق٢/٩٤٢.

(٣) م. ن: ق٢/١٠٥٥–١٠٥٦.

الخاتمة

من خلال بحثنا عن موقف الأنا من الآخر في رثائها لنفسها تبين لنا أن العلاقة بين الأنا الشاعرة والآخر ليست ذات وجه واحد فهي متأرجحة بين التضاد والتوافق جراء التطلعات الفردية أو الظروف البيئية وقد كان للبيئة أثر كبير في تشكيل اهتمام الأنا بالآخر حتى في رثاء النفس سواء أكان الآخر مسبباً الضرر للأنا أم غير متسبب بشيء . ورأينا تمسك الأنا الراثية وتعاطفها مع الآخر بشكل عام عند عبد يغوث، وبشكل خاص عند أفنون التغلبي، كما وجدنا في النصوص المدروسة تضاداً مع الآخر مع ذكر أسباب هذا التضاد حيناً والسكوت عنها حيناً آخر.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب:

١) الإنسان بين المظهر والجوهر، أريك فروم، ترجمة: أسعد زهران، الكويت، ١٩٨٢م.

٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق : فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨م.

٣) تعدد الرؤى نظرات في النص العربي القديم، د .منتصر عبد القادر الغضنفري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

٤) التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، د . عبد القادر عبد الحميد زيدان، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

٥) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق : عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٧) دراسات في الأدب الجاهلي منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية، د .عادل البياتي، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

٨) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره (دراسة نقدية نصية)، د.صلاح عبدالحافظ، ج١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

٩) الزمان الوجودي، د . عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط ٢، ١٩٥٥م.

١٠) الشخصانية، أَما نؤَيل مونيه، ترجمة : محمد جمول، سلسلة ماذا أعرف (٦) المنشورات العربية، د. ت.

١١) شرح المفضليات : أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، تحقيق : على محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.

١٢) الشعر والشعراء، محمد ابن قتيبة، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.

١٣) الظاهرة الأدبية في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، د . إحسان سركيس، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١م.

١٤) ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، أحمد خليل، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

١٥) العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق : أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م.

١٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٣٤م.

١٧) القلق والاغتراب في شعر ما قبل الإسلام، د . عمر الطالب، دار عكاظ، المغرب، ١٩٨٨م.

١٨) كامو والتمرد: روبير دولو بيه، نقله إلى العربية، د . سهيل إدريس منشورات دار الأدب، بيروت، ط٢، ١٩٦٤.

١٩) مسائل في الإبداع والتصور، عبد الملك بن خلدون، دار التأليف والترجمة والنشر، الخرطوم، ط١، ١٩٧٢م.

٢٠) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق، الجزائر، ط٢، ١٩٨٠م.

٢١) الموت في الفكر الغربي، جاك شوؤن، ترجمة : د. كامل يوسف حسين، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٢م.

٢٢) الوجودية، جون ماكوري، ترجمة : د. إمام عبد الفتاح، سلسلة ماذا أعرف، الكويت، ١٩٨٢م.

٢٣) الوجودية: مذهب إنساني، د. مصطفى غالب، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٠م.

الدوريات:

١) جدلية الحياة والموت (نصوص ومقاربات)، حيدر الجراح، مجلة النبأ، العدد ٣٥، السنة الخامسة، ١٤٢٠هـ.

٢) رثاء الأخوة في الشعر الجاهلي، د . عبد العزيز شحادة، مجلة البصائر، المجلد ٢، العدد ٢، ١٩٩٨م.

٣) شعر الاغتراب في الأدب العربي، د . ماهر حسن فهمي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، المجلد ٢٥، ١٩٦٩م.

٤) المرأة في معلقة أمرئ القيس بين العلاقة والمسافة، د .حسن صالح سلطان، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، المجلد ١٤، العدد ٢، ٢٠٠٧م.